متى يصمت الأمس؟

متى يصمت الأمس؟ **(قصص)**

عبدالكريم بن محمد النملة (كاتب سعودي)

الطبعة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-427-6

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2021 /12 /6705)

813.9

النملة، عبدالكريم محمد

متى يصمت الأمس / عبدالكريم محمد النملة. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

(80) ص

ر. إ: 6705/ 12/ 2021

الواصفات: القصص العربية / / الأدب العربي / / العصر الحديث /

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

عبدالكريم بن محمد النملة

متى يصمت الأمس؟

قصص

إهداء:

إلى شَدْو الحياة.. زهرتها
ابنتي لمياء بنت عبدالكريم النملة
إلى زهرتَي قلبي؛ حفيدتَي الديم وليلى
بكنّ أستشّعرُ جمال أيامي وهناء لحظاتي..

الأمس يخيط يومي وغدي
الأمس يأكل من صحني
يشرب من قدحي
وفي اللّيل ينام بجانبي
الأمس يتعلّق بكلماتي
وبأطراف حكاياتي
ويصهل بين أمواج ضحكاتي
الأمس يعوي في أسماعي
يوقظ بين عينيَّ حكايات غافية
ويفتّق جراحاتي
لتنزف آهاتي وعَبَراتي..

إلى عهد الغفلة عن المستقبل..
إلى أوقاتي الصغيرة الساكنة في ذاكرتي وشوقي..
تلك أيام باهرات الجمال..
مضت الأيام.. أبحث عن لحظة منها..
أفتّش في قلبي علّي أقبض على لحظة غافية من ذاك الزمن الطفولي النادر..
فأغيب معها وبها عن عالم الضجيج الذي يلفّ قلبي.

مُمْتَلِئ

نظرات المرأة العجوز تقول لك شـيئًا، قدّمتَ لها جواز سـفرك وبطاقة الائتمان كي تكمل إجراءات منحك غرفة في هذا الفندق الصـغير في مدينة قودلينبورغ (Quedlinburg) في شـمال ألمانيا، سـقطت نظراتك ولهى على وجه العجوز، وكأنّ أمّك قد بُعثت من مرقدها الأبدي، حتى ابتسامتها وانفراج شفتيها يشبهان ابتسامة أمّك وكأن هذه العجوز توأمها. شـعرت العجوز بنظراتك لها، فكررت الابتسـامة محاولة منحك مجاملة تليق بشـغفك بها كما كانت تظن. وضعتْ كفَّيها على الطاولة ورفعتْ رأسها لتقول لك إن الفندق يغلق بابه في العاشرة مساءً فيجب عليك التنبه لذلك، نظرات المرأة العجوز تكاد تلتهمك، امرأة تتجاوز السـتّين من العمر، تبدو كأمٍّ وجدّة لعائلة كبيرة؛ هكذا تصوّرتَها. أخذت المفتاح، وقبل أن تصعد الدرج عُدتَ إليها لتقول لها بصـوت طفل: «إنكِ تشـبهين أمّي تمامًا». ابتسـمت العجوز بحبور وشـبكت بين أصـابع يديها ووضـعتها على جانب صدرها، وأمالت رأسها ورمشت بقوّة وهي تهزّ رأسها.

صـعدتَ الدرج وطيف أمّك يناوب ذهنك، تكره اسـتعادة الأيام السالفات، تكره ما كان يتردد بين الناس عن طريقة أمك في الحياة بعد أن طلّقها والدك.

فندق صغير من ثلاث نجوم وثلاثة طوابق، ولا يوجد فيه مصعد أو عامل يساعدك على حمل حقيبتك. تفتح نافذة الفندق، يندفع إلى الداخل هواء منعش طازج، تمدّ نظراتك نحو الجبال الخضراء المحيطة وملايين الأزهار والورد الممتدّ على جانبي النهر المنهمر من بين الجبال، منظر لا تكاد تُصدّق بوجوده في هذا العالم، صحيح أنك مُتعب من رحلة سفر عبر عدّة مطارات، لكنك وصلت أخيرًا وهذا المنظر يخلبك فلا تستطيع من جاذبيته فكاكًا.

وبينما أنت غارق في لذّة التمتع ببهاء الحياة هنا انصبّت عليك ملامح وجه العجوز (ريلا)..

كيف يكون الشبه إلى هذا الحد؟!

بعد ثلاث ساعات أفقتَ من النوم، الساعة الآن الخامسة مساءً، ستذهب إلى مطعم قريب لتناول العشاء، كنتَ متشوّقًا لرؤية (ريلا) وتشعر بحاجة إلى ذلك. سألتَها عن مطعم قريب، وصفتْ لك مطعمًا على بعد مئة متر. كنتَ تريد أن تبقى قليلًا أمامها، حاولتَ أن تُدير حديثًا عن الطقس، عن الأماكن السياحية. كانت العجوز (ريلا) تزداد قربًا من ملامح أمّك، وتزداد توغلًا في نفسك الظامئة، يأكلك جسدك وشوقك إلى الارتماء في حضنها وتشمم رائحة أمّك بين أعطافها، نزعتَ خطواتك بصعوبة من أمامها، وخرجت ذاهبًا نحو المطعم.

في التاسعة مساءً عُدتَ إلى الفندق، لم تكن العجوز (ريلا) في مكتب الا ستقبال، تريّثتَ قبل أن تصعد الدرج نحو غرفتك، جلست في ردهة الفندق الصغيرة، بعد دقائق حضرت العجوز (ريلا) وهي تمسك بكوب القهوة، سألتك إن كنتَ تريد قهوة فأجبتها بالنفي. للحظات تصوّرتَ أنها أمّك حقًّا وأنها أتت إلى هنا هاربة من هناك، خدعك خيالك، قمتَ لتختبر أوهامك، سألتها مبتسمًا: «هل تتكلمين العربية؟»، ابتسمت باندهاش وقد انقبضت ملامح وجهها وقالت إنها تتكلم الإنجليزية بصعوبة أما العربية فلا تعرفها البتة. عُدتَ إلى مكان جلوسك في المقعد المقابل، ونظراتك ممتدّة نحوها، تتمنى أن تقوم من مكا نها و تأتي إليك وتجلس بجانبك، أشرتَ إليها بأن تأتي. ابتسمت، أومأت برأسها، حملت كوب قهوتها وجلست بالقرب منك.

سألتك عن الأكل في المطعم وعن رأيك في هذه المدينة الفاتنة، كأنك لم تسمع أسئلتها. سألتها: «هل زرتِ بلدًا عربيًّا؟»، قالت لا. اقتربتَ أكثر منها، شعرت بحاجتك إلى دسّ رأسك في حضنها، تدلّى رأسك نحو حضنها، وضعتْ يدها على كتفك كي تعدِّل ظهرك، أومأتَ برأسك. قمتَ وتمنّيت لها ليلة سعيدة، صعدت الدرج، كان طيف أمّك يستولي على ذهنك، أطفأتَ النور ونمت.

طُرق الباب الساعة الثانية صباحًا. كانت طرقات هامسة، أشعلتَ النور، ومن خلال عين الباب رأيتَها، نعم إنها العجوز (ريلا) تلبس قميص نوم أحمر، تضع الأصباغ على وجهها، وتهمسُ باسمك.

***

صقيع

صــقيع يبعث الرعدة في بدنك، تتردَّدين بين الأبواب، يخذلك انتظارهم، الأبواب تحكي صــمتًا باردًا، الظلام في الخارج مخيف، أشــجار الحديقة الصــغيرة تتمايل من شــدّة الريح، والمطر يتبعثر ويضــرب النوافذ، والأبواب تحدث هلعًا يعزلك عن نفســك. من خلال النافذة تلوح أغصان شجرة التين الهرمة تلعب بها الريح، تلك الشجرة التي رافقتكِ سنين طوالًا، هاهي الآن تشكو إليكِ فعل الريح بها، وأنتِ صامتة خائفة ووحيدة!

وحين هممتِ بمخاطبتها ماتت الكلمات في فمك..

في الصــباح تنتظرين موعد الزيارة، المســتشــفى يســمح للزوار الدخول بعد عصر اليوم، تحملين ذاكرتكِ وتمضين، نحوه تمضين، انفضّــوا من حولـكِ وتركوكِ تنتظرين الفراغ، ملّوا من الصــمــت والحديث والزيارات، شــمس الصــباح تناديهم لأعمالهم وضــجيج الأيام لا يصــمت، وأنتِ الآن تتذكرينه كما لم تتذكريه من قبل، تزورينه اليوم، وتجلسين بجانبه.

فاغرٌ فمه، يذرف الصــمت، ينتظر الحياة أو نهايتها، جهاز التنفس يلتصق بوجهه منذ تسع سنوات، سقط، فسقط قلبك وملأ الحزن أيامك، كنتِ لا تفارقينه صــباحًا ومســاءً، أرهقك التنقل فاكتفيت بزيارة واحدة مساء كل يوم، الأيام تتمدد والنهارات تمضي سريعة،

ونومه طويل، لا أمل قريب في نهو ضه، كل مساء جمعة تُمضين عنده بضع دقائق.

هذا المساء كنتِ خالية، فارغة الفؤاد هائمة، نهش الصقيع قلبك، تشعرين بحنين دفين إليه، في غرفته مُسجّى، تعودين إليه، غرفته دافئة والصقيع في الخارج لا يُطاق، تنظرين إليه وكأنك تكتشفين وجوده، هذه المرة حضوره طاغٍ في نفسك، تمسحين بيدك على وجهه، زغبٌ يكوّن ظلالًا على وجهه، تركّزين نظرات قلبكِ عليه، تشحذين خيالك بأيامكما الصغيرة اليانعة، تهمسين له بصوت عذْب استللتِه من الأيام الأولى لكما، شكوتِ له فعلهم، وكيف صيّروكِ وحيدة، كيف لملموا أصواتهم وأطفالهم وحملوا همومهم وحكاياتهم وتدثّروا بالغياب. دهمك شعور ما وكأن نأمة صدرت منه، التفتِ نحو النافذة، كانت الشمس الغاربة تغط في الأفق، اختنق صوتكِ داخلكِ.. بكاء.. عويل صامت، ثم أسندتِ صفحة وجهك إلى طرف صدره، خَدَرَ قلبك وغفت عينك، دخلت الممر ضة الفجعة، نهضت من فورك، أعادت الممرضة تثبيت جهاز التنفس على أنفه، وأدارت أزرار الجهاز، وخرجت، اقتربتِ من أذنه، بكنيته ناديتِه، شكوت الزمان للزمان، الغياب كان يجيبك أن المدى بعيد بعيد.

رفعتِ نظراتك نحو عينيه منطفئتي الوميض، سألته هل تسمعني؟ هل تسمعني؟

سحّت على خدّيك الدموع، سألت نفسك عَلامَ تبكين؟

أيقظتِ حكايات غافيات في شـقوق الزمن الفائت، حكايات عذْبة يبهج بها ويمْرح، تُذكّرينه بها وبما تحمله من وداعة وشوق، هو غائب جدًّا بعيد، وأنتِ ترجين الدفء القديم، الصـقيع يقتات عظامك، تشـبّثت يـدكِ بملاءة السـرير، تمنيـتِ تغيير معـادلـة الحيـاة، وأن يصـطحبك إلى السـيارة الآن وذراعه تحوطك، صـوت جهاز التنفّس يشرخ كل مآلات خيالك.

الغربة مُشـرعة ذراعيها تنتظرك، كرهتِ العودة، ما أقسـى المنفى حتى لو كان في جنّة بيتك! لم تشأ خطواتك إكمال السير، عُدتِ إليه، ارتميتِ على صدره.

***

التئام

منذ اليوم الأول أملت عليّ العجوز (أندريا) شروط السكن معها، كانت شروطًا صارمة قاسية لكنني اعتدت عليها مع مرور الأيام، فلا أخرج من الغرفة دون إطفاء الإضاءة، وأغسل صحني وملعقتي بعد الأكل مباشرة، ولا أستقبل أحدًا من رفاقي في البيت. بعد عشرة أيام أثنت العجوز على سلوكي واحترامي لنظام البيت.

(أندريا) عجوز متذمّرة دومًا، تُمضي جُلّ أوقاتها في مشاهدة التلفزيون، قالت لي ذات مساء إنها تكره الكلاب. قالت ذلك دون أن أسألها، ثم أردفت لا شيء يُبهج في الحياة غير مشاهدة التلفزيون، عجبتُ من أنها لا تملّ من مشاهدة الأفلام والمسلسلات، حتى إنها كانت تُصمت التلفزيون في حال نقل حفلة موسيقية، وحين كنتُ أحدّثها عن الناس في بلادي كانت تقوم وتغلق جهاز التلفزيون مستدرّة إياي في حديثي عن الحياة والناس في بلدان بعيدة عنها، ثم بدأت تنتظر عودتي من المعهد الذي أدرس فيه كي أحدّثها كيف قضيت ساعات الدراسة، وكلما شعرتُ بحاجتها إليّ ازدادت شفقتي عليها، ولأن الأحداث التي تمرّ بي خلال اليوم الدراسي لا جديد فيها فقد كنتُ أختلق أحداثًا مدهشة من خيالي، وكانت العجوز (أندريا) تُدهش وترتعش وأحيانًا تُصفّق بإعجاب من حسن تصرفاتي (الخيالية). بعد نحو شهرين كانت علاقتي بالعجوز (أندريا) فاقت

علاقة طالب يسكن مع عائلة إنجليزية ويدرس في معهد للغة الإنجليزية لتصير علاقة أمّ بابنها تمامًا.

حدّثت نفسي: بعد نحو شهر سأنتهي من دراستي في المعهد وأغادر بيت العجوز (أندريا)، فماذا سيحلّ بها بعد ذهابي؟

أشغلني السؤال، حتى إنني كنتُ أردده على نفسي كل صباح بعد أن أتلقى آخر جملة صباحية تقولها لي قبل أن أقفل الباب خارجًا: **(Take care of your self)**.

بعد أيام لمعت في ذهني فكرة صممت على تنفيذها فورًا، فلا سبيل إلى ترك هذه العجوز الطيبة وحيدة مكتئبة، فصحبتني عدة مرات في الأسبوع للنزهة، كنت وإياها نمضي ساعات على طاولة خارجية لأحد المقاهي، وكنت أحدّثها عن الناس والحياة والطقس، وكنت أقبض دومًا على طفولة عذْبة في ملامحها حين تكون مستمتعة منتشية. وحين يمرّ بنا رجل كهل كنتُ ابتسم له وأدعوه للجلوس معنا، فكان أحدهم يبتسم ويهزّ رأسه ويمضي، وآخر كان يقف لدقائق يتحدّث عن تلك الرياح الجارفة التي تهبّ من المحيط وكيف أنه يسقط أحيانًا من شدّة اندفاعها، وعلى بُعد خطوات مرّ أمامنا رجل كهل طويل مشدود الظهر، أنيق الملبس، تقبض يده على صحيفة مطوية، ويلبس قبعة سوداء فارهة، لاحظتُ أنه يسير ببطء ويتلفّت كثيرًا، استأذنت من العجوز (أندريا) وذهبت إليه، دعوته بأدبٍ جمّ أن يشاركنا متعة القهوة في هذا اليوم المُشمس، وافق على الفور،

كنتُ مندهشًا من سرعة استجابته وفرحته بدعوتي، تنوعت أحاديث (آلار) -هذا هو اسمه- قال إن له ابنة وأحفادًا، وإنه ينتظر عودة ابنته كل مساء من عملها كي تُعدّ له طعام العشاء. بعد نحو ساعة ودّعنا متعلّلًا بموعد له مع ابنته!

بعد يومين خرجت والعجوز (أندريا) إلى ذات المقهى وذات الطاولة، أجلستها، وذهبت إلى داخل المقهى لأجلب لي ولها القهوة، كان الصفّ طويلًا، وبعد أن ناولني عامل المقهى كوبيّ القهوة، عدتُ إليها، وضعت كوبيّ القهوة على طاولتها، لم أجد كرسيًّا شاغرًا؛ المقهى كان ممتلئًا تمامًا والكرسي الذي كان لي جلس عليه (آلار) الذي أتى خلال جلبي للقهوة، وقفت أمام الطاولة أنتظر مغادرة أحد الجالسين لآخذ كرسيه، بعد دقائق كان (آلار) يضع كوب قهوتي فارغًا على الطاولة ويمدّ يده نحو (أندريا)، كانا يقهقهان وهما يغادران المقهى دون أن يفطنا لوقوفي..

***

عابرة بلا غد

تبتهل.. تتضـرّع علّ الليلة تمرّ بهدوء وسِـتْر، تئنُّ روحها بهواجس ولّدتها كلمات أمّها قبل أيام وهي تدعو الله أن تمرّ ليلة العرس بسلام.

انتصـفت شـمس الظهيرة ولم يُفق بعد، ليلة البارحة سـقط في حوض الحمام، ولم يسـتطع النهوض، كان ثملًا، تعاونت مع أمها في إخراجه، كان عاريًا وكانت تضـع ذراعها على عينيها وتنظر إلى الأسـفل، كان يخور مترنّحًا، تلقّفته أمها من حوض الحمام ولفّته بمنشفة كبيرة!

جهدت أمها في ردم حفرة داخله وأخفقت، ثَقَبَ روحها سـنين طوالًا!

استحال الملل في حياتها إلى وباء نهش جسد أيامها.

الآن تنعتق (هي) من ضلاله وبؤسه، الليلة لن يجمعها سقف بيت موبوء بأبٍ ضالّ، ستنام الليلة في بيت عريسها بعد حفلة العرس. كان الخوف والقلق يطاردان أفكارها ويعشـشـان في منامها، هلعًا من ترنّح والدها أمام المدعوين؛ عريسها وأهله!

حين تكتظّ، تسـرح بخيالها متشـبّثة بصـباح طفولتها إذ لم ينفضْ قلبها آنذاك مستقبل قاتم، ولم تحفر قلبها نزواته وهياجه وخيباته.

أفاق جاحظ العينين، رأت عينيه الحمراوين، سـقطت على ذهنها أشـلاء ذكرى تلك الليلة البغيضـة، ليلة الضـلال، أفاقت على صـوت

منخريه الفاغرين النافثين رائحة شراب منتنة، وقبل أن يهمّ بها صرخت، جذبه شقيقها.. توأمها، ودفعه عنها.

ما أثقل أن تقضي حياتك تحت سَورة نزوة هائجة قد تهتك حياتك في أيّ لحظة!

جلس، يحمل رأسه بين كفّيه، كان مزاجه سيّئًا، يشكو من صداع لا ينقطع، كيانٌ ممزّق يحمل داخله أشباح طفولته العكرة، أبوان منفصلان، حياة سمجة، هتكٌ وتشرّد وضياع واعتلال نفسي!

في صالة الزواج تنتظر في غرفة خاصة قدوم عريسها، يستولي على ذهنها همّها الخفي، نشيجٌ واهن متقطّع يكاد يلمع في عينيها أمام أمّها، عيناها تلمعان ووجنتاها محمرّتان، تتلظّى على جمرات الترقّب.

هو يجلس في صدر المجلس بوجه عابس مكتسيًا رذائله، يحوم حوله ابنه، محاولًا إبعاد المدعوين عنه كي لا يكتشفوا أنه ثمل غاية الثمالة.

(ذبلتْ عيناه حين هاتفته شقيقته -العروسة- هل حال أبي مستقرّة؟).

نظرات المدعوين ضاجّة بالأسئلة، إذ كان الأب يصافح المدعوين دون أن يقوم من مكانه!

تستدعي شقيقها، يأتيها وروحه متهاوية، يقول لها لا تحزني، يدقّ قلبها دقّات ملؤها القلق واليأس، يعود سريعًا إلى صالة الزواج، كي يرتق لحظات والده الهوجاء.

خشيتْ أن يكتب لها والدها مصيرًا مظلمًا، تشمّ رائحة عطونة في الجوّ أو هكذا تخيّلت، عقارب الساعة تجري ثقيلة على نفسها، سيقرض عقلها الخوف قبل أن تمضي هذه الليلة وتنتهي مراسم الزواج!

النُدُل يحومون بصوانيهم التي تحمل كوؤس العصائر، وحين يقتربون من الأب الغارق في نفسه، تفوح رائحة الشراب فيبتعدون عنه، كل من حوله من المدعوين سحناتهم ساكنة راكدة إلا أن تصدر عن الأب نحنحة، وتهويمات كلمات غامضة، لكن حين أشعل سيجارته تلفّتت روؤس المدعوين مندهشة من هذا التصرف النشاز، يشعر شقيقها الواقف بجانب أبيه بصوت منبعث حوله يسأل عن حالة الأب، يبتسم للجميع دون أن يركّز بصره على أحدٍ منهم ويقول إن الصداع يفتك به!

بعد دقائق من الصمت بدأ يحدّث نفسه بصوتٍ عالٍ، يتكلم وكأنه يحدّث أحدًا أمامه، فيأمره وينهره، ارتبك ابنه واهتزّ وقوفه، أوشكت دقّات قلبه أن تصمّ أذنيه!

يتراءى لها والدها الآن مترنّحًا وهو يصافح عريسها، فتكاد تسقط من مقعدها.

شـاردة الذهن وعيناها مغمضـتان، لاصـقتها أمّها، قرصـتها حين سمعت جلبة وصول العريس.

اسـتند على مرفق ابنه وقام مصـافحًا العريس وعائلته، كان يسـعل بشـدّة، فتفوح رائحة الشـراب الرديء، كاد يسـقط عدّة مرات، فجذبه ابنه بعصبية وخشية.

دقائق ثم قام ابنه داعيًا العريس للدخول إلى غرفة عروسـه، سـارا جنبًا إلى جنب، انتفض جسـد الشـقيق حين صـاحبته رائحة الشـراب التي تفوح من فم أبيه، الرائحة لا تزال عالقة بأنفه.. تصحبه!

شـعر بوخزة سـاطت خدّيه، تعالت داخلة صـرخة كظمها، وقف أمام الباب عدّة ثوان، كان مرتبكًا وجِلًا، طرق الباب بيدٍ خائرة، فُتح الباب فولج العريس ورائحة الشراب تنبعث من فمه!

شقيقها في الخارج مسندًا رأسه إلى الحائط.

صـبـاح حفلة الزواج، رنّ جرس الهـاتف، الجميع كـان نـائمًـا، شقيقها كان بجانب الهاتف ينتظر الاتصال، قالت له احضر حالًا!

***

قبل أوانه

لا تركضُ، لا تعبثُ، لا تصرخُ، لا تطْربُ، هل تتقمّص دورًا ليس لها؟ هل تعبث بتجارب الكبار؟ هل تتسلق السنوات عاجلة مُطاردة؟ مضت شهور ورتابة الأيام لا تنكسر بضحكة.. بجنون لذيذ!

لاتنهمر كلما تها كما يفعل هو مستدرًّا بهاء ها، تُخرج كلما تها بحرص قاتل، بعقل وازن، برتابة غبية، غابت عن عينيه ملامح خياله حين صنع له فتاة تشبه ممثلة مصرية ضحوكا، كانت فعلًا تشبهها، لكن تلك يخالطها جنون شباب، وهذه تحمل فوق رأسها عبء سنين لم تعشها!

مُهرّج وأرعن في الوقت ذاته، هكذا رأى نفسه تحت نظراتها اللائمة إن فزعت نفسه لهدف في مرمى خصم فريقه، أو تماهى مع أغاني الفوز الهائجة.

لم تترنّم يومًا بأغنية وإن فعل هو صدّت، يسألها ألا أرض لدنة تطأ قدمك عليها أبدًا؟ ألا تصنع صباحك موسيقى الطير؟ ألا يطير بك شدوه المترنّم العذْب؟

أي لذّة لفاكهة تُزرع وهي ناضجة، عبثًا يحاول الجلوس أمامها لساعات وكأنه على مقاعد الدراسة، هي تفعل كذا!

حتى المسـنّات تطوف أحيانًا بأذهانهن صـبوات يبتهجن لها، ثم ينكفئن على وجوههن فجأة إن رَصَـدَت تجاوزاتهن عين متلصـصـة، هي لا تفعل!

يتذكّر أنها دفعته للتنازل عن زمنه الفتي، فعلت ذلك ببطء وصـبر نادرين، لحق بزمن الرجال الكبار منذ سـنة أو يزيد، عندها انطفأت الرغبة، وصارت الدهشة التفاتًا، وخَبَت شعلة الشغف في نفسه.

لحق باتزانها، غادر مراتع العبث، سبق زمنه، جعله خلفه، محاولًا اصـطيادها هناك. صـدّقه جسـده، وبدأت طقوس الشـيخوخة تتسـلّق ظهره، فانحنى الشـاب ككهل، ولزمته عصـا يتوكأ عليها، غلظ صـوته الشـاب، وتغضّـن جبينه، هي تسـير بخطواتها القديمة الوئيدة امرأة في جسـد فتاة، لم يعُد يبهج سـمعه صـوت طير ولا رائحة مطر، يسـيران نحو نهاية دربهما قبل نهايته!

***

دفء

عتمة تتربّص بنبضـــها، النبضـــات بطيئة متباعدة، الطبيب يبالغ في الفحص، يقرأ تخطيط القلب للمرة الثانية، قبل أسبوع فقط نجت من موت مُنْتَظر، أبت الظلام وانتصـــرت للحياة، بعد أيام عاد ألمها وغيابها المفاجئ ذاك، فحوصـات أخرى، قسـطرة بعد العملية، الآن ترقد نائمة متألمة، أعيشُ أنينها منذ فجر اليوم، يخرج الطبيب ويقول سـيحضـر بعد قليل، تمضـي أوقات الصـباح ثقيلة الانتظار، أُحصـي أنفاس أمي، بعد الظهر طرق الطبيب باب الغرفة ودفعه ودخل، دخل خلفه طبيبان، أحدهما كبير في السـن، لا أدري لماذا خفتُ منه وكأنه سـيعلن الآن موتها، أما الآخر فموزع النظرات هائمها، لا تسـتقر نظراته على شيء إلا غادرته فورًا.

حمل الطبيب تخطيط القلب والملف المعلّق على طرف السـرير، تحـدث مع الأطبـاء الـذين دخلوا معـه بـاللغـة الإنجليزيـة، لكن بمصطلحات طبية، كان الطبيب العجوز المخيف يستمع جيّدًا ويقرأ نتائج الفحوصـات، بعد نحو نصـف سـاعة من النقاش تخلله فحص قلب أمي وظهرها بمسـاعدة ثلاث ممرضـات يُنهضـنها، قال الطبيب موجهًا كلامه لي وللمرة الأولى: أنت ابنها؟ أجبته نعم، أشار بجسده إلى الطبيب العجوز المخيف، وقال الدكتور خليل سـيشـرح لك كل شيء عن حالة والدتك.

انخلع قلبي، أفلت الخوفُ من عقاله، كان مخيفًا وهو بعيد.. الآن سيباشر علاج أمي!

خرج الطبيب المعالج يصحبه الطبيب هائم النظرات، كان لا يزال يوزع نظراته على كل شيء بصمت، اقترب الطبيب العجوز من رأس أمي الغائبة، وقال في أذنها: «ما تخافيش يا حجة حتبقي كويسة».

انهار فجأة كل الخوف الذي بنته نفسي داخلها منذ أن رأيت الطبيب العجوز قبل نحو ساعة، ملامحه بدأت في الانبساط التدريجي، حتى اقترب من قلبي، شعرتُ بقربه، بل دبّ الأمل بكل عنفوانه داخل قلبي، وكدت أطلب منه أن يكتب ورقة خروج من المستشفى لأمي، رسم لي الطبيب بقلم رصاص على ورقة بيضاء قلب المريض، وشرايين التغذية التاجية، وقال إننا استبدلنا ستة شرايين تالفة بأخرى جديدة، قال إن بعض ما تم تغييره من شرايين انسدّ على الفور، قال ذلك وهو يبتسم في غير موضع الابتسام، أشدّ ما كان يقتلني في تلك اللحظة هي الكلمة الأخيرة التي سيقولها الطبيب بعد لحظات، كان الطبيب مُشفقًا كأب، وحين رصد قلقي قال لا عليك فهي تغذي أصلًا منطقة هامشية يمكن علاج آثارها بالدواء، وقبل أن يغادر قال الممرضة ستقوم بحقنها بالدواء وسيخف الألم!

لكن قلب أمي انهزم ولم تُفق!

بعد أسبوع عدتُ إلى المستشفى لإنهاء تسويات مادية، رأيتُ في ممر المستشفى طبيب أمي المعالج فانخلع قلبي وكأنه سيقول لي شيئًا جديدًا عن أمي رغم وفاتها! ثم رأيت من بعيد الطبيب العجوز يسير ببطء، شعرتُ بحاجتي إليه، فسقطتُ على صدره باكيًا، بكى هو وسالت دموعه إلى عينيّ.

***

عابر

ناضبة المشاعر، تقرأ الشاشة على عجل، يبدو مسار النبضات متعرجًا، تعود إلى ذراعه وتُحكم وضع الأنبوب، ثم تُعيد ضبط القطرات المنحدرة من كيس التغذية الممزوج بالأدوية، تخرج فور انتهاء عملها الدقيق جدًّا، والمُحكم بمهارة الخبرة الطويلة، أودت بها مشاعر المرضى وآلامهم طوال سنين، واعتادت صحبة الأنين والألم دون أن ينبض في وجهها عرق شفقة أو لمحة بكاء!

أنين ينحدر من أقصى الألم فيسقط في قعر قلبه المرتجف.. الممتلئ.. لا يحتمل، ينزف أضعاف وجع والده.

نسج الصباح خيوطه الأولى، اختلس النظر إلى البيت المجاور للمستشفى من الخلف، قصر مَشيّد، تلفّه الأشجار من كل جانب، عامل زراعة يعتني بالشجر والزهر، وحارس أمام الباب الكبير، وسائق لا يكلّ من غسيل وتلميع عدّة سيارات فاخرة وملوّنة تقف على يمين الداخل، أشجار الورد يذيع شذاها كل صباح حتى لتكاد الرائحة الزاكية تصل إلى غرفة والده مختلطة برائحة الأدوية والمطهرات.

صوت يصدر فجأة من الجهاز بجانب والده، يصيبه الذعر، يهمّ بالذهاب نحو منصة التمريض، تدخل الممرضة بلهفة تعالج الجهاز فيصمت، دار نحو الجهة الأخرى، نظرات والده تتجه نحوه، تُبلّل

روحه بأمل جديد. جسد تناسل من بقايا الأنين، فتك به الفقر والمرض وأعباء السنين.

يمسّد بيديه قدمي والده، قدمين مهترئتين متشققتين انهكتهما مسافات طويلة نهبها نحو لقمة عيش قصي، لا يطيق والده تغطيتهما، فيخرجهما من تحت الغطاء.

قدمان عَبَرَ بهما حياة شاحبة قاتمة، لم تسنده الأيام ولم يقف الزمن بجانبه، خمسون عامًا يتردد بين كثبان المواجع، وكأنّ الهناء حلم الغرباء أو شبح مصلوب أمامه يطوف حوله ولا يبلغه!

أغفى وهو جالس أمام قدمي والده، وما زالت أصابع يديه بين أصابع قدمي والده، ثم فزّ فجأة على وخز أنين والده!

توقف عن دعك قدمي والده حين رأى السيارة المرسيدس الفاخرة تقف قليلًا أمام بوابة القصر، انتقل بذهنه وقلبه يتابع سيّر السيارة حتى وصلت إلى البوابة الداخلية، ترجّل منها رجل بلباس أنيق فاخر، لم يدخل البيت بل سار بزهو وفرح، تأمّل الزهور المتجاورة، كل وردة بلون، انحنى يقطف بضع زهور، تناول الورد عامل الزراعة الذي شرع في تهذيبها وتصفيفها وهو يسير خلفه إلى داخل القصر.

ضغط بأصبعيه على حاجبيه، وعاد إلى ممارسة الانتظار الطويل.

هبط الغسق من وراء البنايات العالية البعيدة، وآهات عنيفة صامتة مثخنة بالألم تملأ جوّ الغرفة، ولهاث والده يُطبق على صدره، زَحَمَه

الظن، فزّ وسار نحوه، وقف ينظر إلى وجه أبيه.. يتأمّله وقد خبا البريق من لحاظ عينيه، يكاد يسمع صخب قلبه يتدحرج من حنجرته اليابسة، تمنّى لو يروي غلّة عطش والده لكن هذا من الممنوعات عليه!

عاد ثانية إلى مزاولة الانتظار.

في الانتظار يتكثّف الزمن، يصير كأنه مريضٌ آخر بجانب والده وعليّه مرافقته أيضًا، والاعتناء به وصرفه بهدوء ودون تذمّر يلج داخله ويسير في أروقة نفسه!

في الصباح يرى ابتسامة والده تنسلّ من بين عذابات جسده فيتبرعم فرحه، ويشدو داخله بأغنية البهجة.

يزيح الستارة قليلًا، نظراته مشدودة إلى الرجل الثري صاحب القصر المجاور، هذه المرة كان يلبس ملابس رياضية ويمارس تمارين صباحية طويلة وقاسية، بالقرب منه خادم يحمل صينية عليها كؤوس عصائر، بعد نحو نصف ساعة جلس الثري على مقعد الحديقة تحت شجرة وارفة الظلال، وشرب العصير، وجذب فوطة صغيرة التفّت حول عنقه ثم مسح بها عرقه، في تلك اللحظة مرّ رجل مهموم بائس مطرق الرأس يسير متثاقل الخطى، وحين حاذى باب القصر المشرع وقف للحظة والتفت ينظر إلى داخله ثم مضى، تحفّز.. همّ أن يخرج من غرفة والده المريض وينزل إلى الشارع، كان

الرجل المهموم يشبه والده وكأنه توأمه، هبّ نحو باب الغرفة، فتحه فإذا الطبيب المعالج يقف بالباب، في جولته اليومية.

رجف قلبه وتوالت خفقاته، حين أوغل الطبيب في فحص جسد والده، وقف الطبيب لحظات صامتًا يحرك قلمه بيده ويعضّ عليه أحيانًا، أنفضته نظرات الطبيب حين توجهت إليه بصرامة وحقد، سأله: «هل كان والدك يتألّم ليلة البارحة؟». «نعم يئن طويلًا».. أجاب!

تحدّث الطبيب إلى الممرضة المرافقة له، كتبت تعليمات الطبيب، خرج الطبيب دون أن يقول شيئًا.

عاد هو إلى البحث عن الرجل المهموم، وشوق العصافير يتقافز في صدره، ولمّا أبصره مولّيًا هرع إلى اللحاق به بسرعة مذهلة، هبط إلى الشارع، سار إلى الناحية الخلفية للمستشفى حيث قصر الرجل الثري. بحث عن الرجل المهموم الذي يشبه والده، طاف حول المستشفى مرات عدّة لكنه لم يجد قصرًا ولا وجد رجلًا مهمومًا.

***

أمنية أخرى

متوهّجًا بجانبي، تأكل من صحني وتشرب من قدحي، تخالط أنفاسي أنفاسه، منذ غاب، منذ هجر، لم يغب عن تفاصيل عيشي، أصحبه وهو غائب عنّي، يتوكأ قلبي على جدارن قلبي، لم أجرّب النسيان يومًا، لم أقترب منه، سأفشل حتمًا إن حاولت، لن أجسر على مغامرة غبيّة كهذه، منذ غاب.. منذ هجر.. لم أفعلها، رتقتْ مشاعري فواصل عنيدة ألحّت زمنًا على الفصال، كررت محاولاتها، لمّا لمست عنادي، لمّا شاهدت إصراري، مدّت خيوط وصالها التي كانت على وشك الذبول، والتحمت كل فاصلة كادت تذوب يومًا ما، حينها امتدّت أيامي كما هي قبل أن يهجرني ويغيب، فأبدعتُ في خلق عالمي المستمر وكأنه لم يغب أو يهجر. انتظرتكَ آناء الليل وأطراف النهار علّك تندم.. تتذكّر.. تعود، تقاذفتني لجج الأيام.

بزغت الشمس بعد عناد كاد يقتلني، تربّصت بالمساء وعندما أقبل لففتُ رأسي بشال داكن تدلّت بعض خيوطه المعقودة على جبيني، إنه العزاء، بالأمس ماتت أمّه، فوجب العزاء.

في كل خطوة أسيرها إليك تتوالد الصور، صورة تلو أخرى، في كل صورة كنت أبحث عنك، في عتمات الذاكرة، في تسلّط الظلام، وفي أعقاب الحكايات.

تبعث قطرات المطر وهي تنطح زجاج نافذة السيارة صورًا أخرى رطبة شـائقة، لكن الصـورة الشـنيعة أيضًـا تقتحم، تعاند، تمكث، صوت ارتطام السيارة، تقلّبها عدّة مرات، نجاتي وإياك وموت الجنين وبيت الجنين، فلن أكون أمًّا أبدًا!

لم تأكلك نظراتي المتهمة بأن نعاسـك هو السبب، وأنك أفقدتني جنينًا كنت أتلمّسـه بشـوق وانتظار، بل أقصـيت الملام والعتاب والاتهام، واخترتك لنكمل حياتنا دون أن ننتظر ثمار حياتنا، لكنك تحيّنت فرصـة فكاك، فكانت تلك الليلة حين انفرط عقد لحظاتنا، فهاجت لحظة نافرة قصـيّة غادرت عقد لحظات الزمن الرتيب، وانقضّـت علينا، خالطت عقولنا نزقات حادة، كانت أقدامنا تخوض في طين لزج، كان اللهب يسري بين عينيك، وقد رسم الغضب علامته على جبينك، أنا أيضًا كنتُ متحدية عنيدة، صممتُ أن تحترقَ بلهيب عينيك.. فاحترقتَ ولفظت كلمة الفصال بيننا!

صـور تبعث كوامن الأسـى في قلبي، لكنك قطّ لم تغادرني، لم أدعك يومًا تنهض من يومي، فلم تشدخ قلبي عوالم الفراق، ولم تطأ جسدي غير خطواتك القديمة اليانعة.

انتظم عقد صـياح النائحات في صـالة بيتكم، لبثتُ هنيهة لدى الباب الموارب، أضـواء المصـابيح الباهتة تُشـيع حزنًا موجعًا، أتيتُ أرتّل على مسـمعيك أشـجان قلبي المقروح، أعلم مقدار حزنك على

فراق أمك، باغتُّ هذه اللحظة من ضـعفك كي تدنو، كي تتذكّر، كي تندم، كي تعود.

جلست في مقعد قصي، سمعت صوت الجدران، كانت صاخبة بسـؤال موجع: أجئتِ تعرضـين نفسـكِ من جديد؟ اكتأبتُ وعَلَت المرارة حلقي.

تعبر نظراتي بين وجوه كدّها حزن الفراق، جلال الموت يسـكن فوق الرؤوس المتمايلة حزنًا وفَرَقًا، وأخرى صـدى لأحزان تفوح، كنتُ أبحث عنك في وجوه أخواتك البائسات، لكن الحزن يسحّ على ملامحهن فيبدلها بملامح أخرى بعيدة، نظراتي لم تخب، قنصـتْ صـورتك بجانب إخوتك في لوحة تتدلى على صـدر الجدار، اهتزّ كياني وأتت على مهل الذكريات المدفونة في أعماقي.

عجوز مجعّدة جافة سـلّطت عليّ سـؤالًا خبيثًا اسـتلّته من نتانة ضلوعها، سؤال انغرس في أقصى أعماقي: ألستِ طليقته؟

عضضتُ شفتيّ من الغيظ، ولم أُجب، تمتمتْ العجوز بغمغمات مبهمة، لم تُطق عنادي فولّت وجهها الكدر نحو النساء الثكالى.

كيف أقصـيكَ عن أيامي، أتيتكَ محمّلة بأنقاضـي، عليك -حين أغادر العزاء- أن تصنعني من جديد إن استطعت! تناهت إلى سمعي أصوات رجال خارج صالة النساء، أصوات غلبها صوتك في سمعي، صـوتك! نعم هو صـوتك، كان يصـنع رغبات لاهبة تمور داخلي، صوتك بعثر وحشة المكان، وأعاد أسفار أيامنا الخالبة، صوتك نهر

دافق سيُنبت وعدًا قادمًا، ويسقي مروج الأمل، ويحيي موات الأرض بعد أن جفّت ضـــروع أيامي، صـــوتك فقط ما كنت آتية إليه، رغبة طاغية تدفعني للبحث عن يدٍ تقودني إليه كي أنهار على صـــدرك، أخواتك قد ذهب الحزن بلبّهن فخلت أفئدتهنّ من أيّ شـــيء غير الحزن والنحيب على أمّهنّ.

أرى صـورتك الآن تتخلّق من وحي صـوتك، أشـعر بها تخرج من هذا المدى المتخم بالأشـــباح والذكريات الجســـام، تتوهّج أنت داخلي، وتلاصـق جسـدي، وتسـير معي، تعود اليّ لتأكل من صـحني وتشرب من قدحي.

***

صحوة

يلهو الأحفاد بالكرة في صالة البيت، يدخل جدّهم متخاذلًا منهوك القوى، تسند خطواته عصا غليظة، يمدد جسدًا غاية في النحافة على المقعد المخصص له، يتقاذف الأحفاد الصغار الكرة بينهم، يرفع جدّهم رأسه بين الحين والآخر متوقعًا أن تضربه كرة طائشة، وحين يُرهقه الترقّب يخفض رأسه وينام، لكن الكرة لا تنام، فهي تمرّ بجانب أذنه تمامًا، يغمض عينيه مخافة أن تصدمه، لم يجد بُدًّا من أن ينهض بجذعه بتثاقل تسنده العصا والخوف، وصار يدفع الكرات المصوّبة نحوه بالخطأ، فيقذف بهذه، ويصدّ هذه، ويرمي بهذه من جديد، اشتعل حماس الجدّ، أشركه الأحفاد معهم كطرف، قام من مكانه وأخذ يصدّ ويرمي الكرات بمهارة سنين ماضية، وحين تسقط الكرة قريبًا منه يسير بضع خطوات ويلتقطها ثم يقذف بها، صخب الأحفاد يزداد وهم يرون جدّهم يقف في وسطهم دون أن تسنده عصاه، يتقاذف معهم الكرات بصخب طفولي باذخ!

***

لا تندمل

جلســتُ أمامه في المقهى، كان يتحدّث بطلاقة لســان، وكنتُ أنصتُ إليه، سألته إن كان يتذكّر؟

قال ماذا؟

أريته مواضع جراحه التي لم تندمل، قال لا أرى شيئًا!

قلت له وكيف ستراها؟

قال لو كنتُ جرحتكَ لرأينا أثر الجرح!

ضحكتُ باكيًا، سلّط عليّ نظرات عمياء، وبدأ لسانه يلتوي ويبرز فتشــكّل كســهم يريد أن ينطلق، قمت من مكاني متجهًا صــوب باب الخروج، أتذكر أن أســهمًا ملتهبة كانت تتســاقط على قدميّ وكنت أتجاوزها خارجًا!

***

اجترار

خرجت للعمل مبكراً هذا الصباح الشتوي، كنت مليئًا بحزن شقيّ لا أعرف له مصدرًا، اتكأتُ برأسي على كفّي وأمسكت المقود بيدي اليمنى ومضيت، أضاءت إشارة المرور باللون الأحمر فوقفت، التفتُّ يمينًا لأجد رجلًا في نحو الستين من عمره أتلفه حزن ما، كان مكتظًا، بل إني رأيته يمسح دموع جفنيه، عُدت فورًا إلى البيت، وألقيت بجسدي على السرير، وأكملتُ بكاء الرجل!

***

دائرة الرغبة

رجل الأربعين..

مكبلًا بالشقاء..

قيود تطوّق رسغه وقدميه..

عيناه تحومان بسرعة واضطراب وكأنه ثعلبٌ تم اصطياده للتو..

يراقب ويترقّب حركة العسكري الذي يقف بجانبه..

فجأة..

يركض نحو ذاكرته طفل العاشرة..

صَـهَدَتْهُ الشـمس، لاذ بظل الحائط، فُتحَ فجأة باب بيت العزاب، وامتدّت يدٌ حازمة قابضة على ذراعه الصغير.. وأدخلته..

ممسكًا بوسط ثوبه لئلا يلتصق البلل بجسمه..

يسير باكيًا شاكيًا..

إلى بيتهم عاد..

والده أمام المرآة يهذّب شعر لحيته..

فجعه بكاء طفل العاشرة، أبصر الثوب المبلل..

في مركز الشرطة وقف أمامه خمسة رجال..

وشوشه العسكري ماسحًا رأسه بأبوّة وإشفاق ومشيرًا إلى الرجال الخمسة الواقفين أمامه وسأله: أيهم؟

والده بجانبه وما زالت آثار رغوة الحلاقة بادية على طرف لحيته..

رفع طفل العاشرة نظره نحو عيني والده الذائبتين حزنًا وكمدًا..

قال طفل العاشرة مشيرًا إلى أحد الرجال الخمسة.. هذا.

العسكري الذي يقف خلفه أمرَه: أمسِك ثوبه، تقدّم طفل العاشرة ثلاث خطوات نحوه وأمسك بثوبه.

الآن..

يمخر عباب ثلاثين عامًا ليصل طفل العاشرة إلى رجل الأربعين..

متجاوزًا نزوات ميعة الصبا، وفوران براكين الرغبة..

رجل الأربعين..

مكبّلًا بالشقاء..

يرسف في قيوده..

يفتح العسكري باب المكتب..

يدخل طفلٌ بلباس أبيض وبعينين منكسرتين، وحين أبصر رجل الأربعين متحفّزًا متوثّب النظرات ينظر إليه بارتجاف، شملته رعدة ورجفه، ناداه العسكري باسمه فخفت انفعاله، اقترب من العسكري

المُنادي، أشار العسكري إلى رجل الأربعين قائلًا بصوت جهوري.. هذا؟

أومأ الطفل مجيبًا.. نعم..

***

متعة

متوهّجًا بوعدٍ خالط يومه، هذا المساء سيُشعل الظلام، سيجعله متوقّدًا مترنّحًا، سينفض صبر الأيام الأولى، هي في المطبخ تُعدّ له طعام العشاء، قال إنه يريد أن يسهر، أن يودّع أسبوع الإجازة الذي منحته له إدارة عمله بمناسبة زواجه.

هي وضعتْ له ما طلبه، صحن خيار وصحن جزر وصحن مارتديلا وبعض المكسرات، أخرج من كيس بلاستيكي ملفوف زجاجة ويسكي.

بُهرت حين رأت الزجاجة، أخافها شكلها وتولّدت في ذاكرتها سلاسل من أحداث أنهكت حياة أمها، وسعّرت لهيب أيامها، غثيان ودوار وصبر احتملته، توالت على ذهنها ظنون أشدُّ فتكًا، رضيتْ بأيامها كي تستبقي مستقبلها..

هو عبّ كؤوس النشوة حتى غرقت نفسه في التيه، ضلّت مسارات تفكيره فجلبت له أطيافًا من أشتات ماضيه العابقة برائحة سَفَرٍ وخمور ونساء!

هوى بجسده بجانبها، كان مخمورًا، وقبل انبلاج الفجر انسلّت بخفة من جانبه، بين صحو ونوم ثقيل أبصر شبحها والظلام مُغْبِشٌ.

رآها وهي ترتدي لباســها، فتح الدرج وتناول بعض النقود وقذف بها إليها طالبًا منها أن تغلق باب الشقة خلفها!

***

رحِم

أحدهم يلوّن بلاط الرصيف، وآخر يعزف، وعلى بُعد أمتار من حافة الدرج نصب رسام حامل اللوحة، تجلس هي بجانب لوحته، وجه ناعم صافٍ وكأن الدنيا لم تعبره، عينان واسعتان ونظرات ناعمة وثغر كرزي، تشتعل على أهدابها ابتسامات عذْبة، تلبس قميصًا أصفر. وقفتُ أمامها، أطلت الوقوف، اهتزّ قلبي وخفق بسرعة، تُشبه ملامحي، كدتُ أنطق باسمها، أحضنها، لكن شعرها الأشقر وهذه القطعة المعدنية الصغيرة على جانب قميصها التي تحمل علم إيطاليا جعلاني أتريّث، رفع الرسام رأسه سائلًا إن كنت أريده أن يرسمني، أجبتُ بالنفي وغادرتْ.

في المطعم طلبتُ الغداء وملامح الفتاة ماكثة بين عينيّ، كنت أنوي إكمال سيري بعد الغداء لكن صورة الفتاة أمام الرسام لا تغادرني، أ شعر بحاجتي إليها، عدتُ إلى حيث مكان الر سام، وجدته يرتب أشياءه، سألته عن الفتاة فقال بإشارة من يده غادرت. سرت أحاول اقتفاء أثرها، الساحة الواسعة تعجُّ بالسائحين في مثل هذا الوقت، أحاول المرور بينهم ونظراتي تمتدّ إلى وجوههم العابرة، أبحث عن الفتاة الإيطالية، كانت ملامح الفتاة تكاد تنطق أمام الر سام، تكاد تناديني با سمي، كنتُ متعجلًا في مغادرتي المكان، لماذا

لم أنتظر على بُعد أمتار منها؟! لماذا استعجلت الذهاب؟! حتمًا كانت ستتذكّرني..

مضت أيام وأنا أحاول أن أتذكّر أين رأيتها سابقًا، الفتاة ليست بعيدة عنّي، هي قريبتي ربما، لكن ذاكرتي ترفض أن تصلني بها، توصلني إلى حدّ معرفتها ثم تنكفئ قاذفة بي بعيدًا، فعلتْ ذلك أيضًا وأنا أشاهد ملامحها أمام الرسام.. تنطبع على صفحة قلبي.. تطأ ذاكرتي.. توقظها، فترفض الذاكرة أن تصلني بها رغم كل محاولات الاستجداء التي أبذلها.

أعود إلى استجلاب صور من أقصى ذاكرتي لقريبتي التي هجرتني منذ عشرين عامًا، أقف على ملامحها القديمة وأراني أستعد لمعاودة البحث عن الفتاة من جديد بين أفواج السائحين.

***

تآلف

دفعت الممرضة بسريرك إلى الجانب الآخر من الغرفة ناحية الباب بعد إلحاح متواصل من زوجة المريض الذي يشاطرك الغرفة بأن ينقلوا زوجها الواعي ناحية النافذة؛ إذ أنت لا تعي شيئًا -كما تقول هي لهم- ومن ثم فلا فائدة لك من النوم بجانب النافذة. زوجها يريد أن يرى الشروق، يريد أن يرى الشمس، وافقت زوجتك على مضض، ليس شفقةً عليك، بل لأن نظرات الأخرى كانت متحدية.

أنت بعيد لا تعي، المريض الذي يقا سمك الغرفة يناديك با سمك ولا ينتظر إجابتك، يقول لك إن الشمس الآن أشرقت، يقول لك إن العالم الذي يراه الآن من علو الطابق السابع مزدحم، وإن الناس يذهبون إلى أعمالهم، يحدّثك عن كل ما يراه من خلال النافذة، ربما شعر بالذنب وقد استولى على مكانك المشرق وأودعك مكانًا مظلمًا.

قال لك إنه سيخرج بعد ثلاثة أيام من المستشفى، وأردف قائلًا إنه سيزورك بعد أن يخرج كل أسبوع، وسيحدّثك بكل ما رآه خلال أسبوع.

كل مساء تزوره زوجته، بينما زوجتك كلّت من صمتك الطويل فلا تأتي لزيارتك إلا في نهاية الأسبوع، ثم هي لا تلبث طويلًا. كل مساء تزوره زوجته، تسحب الستارة الفاصلة، تسمع أنت تهامسهما

وقبلاتهما الوادعة كل مساء، وما إن تخرج زوجته حتى ينهمر بحديث طويل عنها، سرد لك كل شيء عن علاقته بها وعن علاقاته بأخريات غير زوجته، كان يميل برأسه نحوك كي يقول هامسًا كل ما لا يقال عن صبواته ونزواته، كان يعلم أنك سادر في غيبوبة لا نهاية لها، وكان يُفضي إليك بكل أسراره الدقيقة.

هذا المساء دخلت زوجتك متأففة غاضبة تغلي، سحبت الستارة التي تفصل سريريكما بعنف، قالت تخاطبك بصوت أرادت أن يسمعه المريض الذي يشاطرك الغرفة: يقولون إنك لا تعي.. لا تسمع.. ثم قبّلتك بصوت مسموع وودّعتك وانصرفت.

أطفأ المريض الذي يشاطرك الغرفة الضوء، وقبل أن ينام حكى لك طويلًا عن حياته، وسألك أسئلة عديدة، كانت أسئلته متوالية متدفقة، وكان يُجيب بنفسه عن بعض الأسئلة ظنًّا، ثم نمتما في لحظة واحدة.

قبل الفجر شهق جارك شهقة أيقظتك، ثم سمعت جلبةً وأنفاسًا زافرة متعددة حولك.

فتحتْ زوجتك باب غرفتك بهدوء، أتت هذه المرة قبل أن تمرّ ليلة أخرى على زيارتها السابقة، قالت لك بصوت شجيّ حزين، غادر بسكتة قلبية، ثم هاتفت الممرضة كي تنقل سريرك ناحية النافذة، قبّلت جبينك ومضت، قبل أن تخرج عادت وكأنها أرادت أن

تقول شـــيئًا، كانت عيناك رطبتين بالدموع، حضـــنتك وقالت يقولون إنك لا تعي!

***

مغادرة

جسد مبذول تتقاذفه رغباتهم، يحوم بين فحيح أنفا سهم الملتهبة، جسد طاغٍ في الأنوثة والنعومة يفرك أشواقهم.. في شقتها في الطابق الرابع تستقبل كل مساء شظايا رجال هامت نواصيهم نحو العبث ببقية أعمارهم، تسعى رغباتهم بين أيديهم، يتحلّقون كل مساء حول الجسد المبذول أمامهم، فتنفض أجسادهم رعشاتها، وبلغوا من لذّة الليالي أنهم لا يفرّطون بموعدهم الذي استهاموا به.

بينما كانت تُسقي أحدهم كأس لذّته وهو هائم غائب في متاهات اللذة وشوق اللحظات، إذا بآخر لم تعبث النشوة به بعد يُشير إلى جهاز التلفزيون الذي يعرض مسلسلًا مصريًّا قديمًا لا يأبه به أحد ولا يتابعه أي منهم، تلفتت وجوه الكهول المتأرجحة بين الغواية واللذة، كانت الممثلة المتحجّبة فتاة بالغة الجمال، قال مازحًا ضاحكًا وهو يُشير إليها: انظروا.. أليست هدى؟

ضحك رجل مثلوم الأسنان ورائحة التبغ اللزجة تفوح من فمه مختلطة برائحة شراب معتّق، تلفّت الرجال بين وجه الممثلة في التلفزيون ووجه هدى التي تغدق على رغباتهم بكرم أنثوي عابق بالغواية. صاح أحدهم وكان ينهل من شراب اصطفّت قواريره أمامه: «هي هدى لو خلعت حجابها»، كانت هدى موزّعة بين أفواه الكهول،

فبصُرت وهي تتقلّب بينهم بالفتاة الممثلة، ابتسمت إذ رأت الشبه جدّ قوي!

مضت الأوقات العابثة، في الهزيع الأخير من الليل لملم الكهول أجسادهم، ورسموا سمتهم ووقارهم، غادروا الشقة تباعًا ضجرين من مُضي الوقت بهذه السرعة، ودّعتهم هدى بغنج تهتزّ له قاماتهم المديدة، أقفلت الباب وانهارت على المقعد وقد خدرت مسامات جسدها من كدّ ليل طويل!

بعد نحو ساعة غفت فيها وهي على مقعدها، قامت نحو التلفزيون، بحثت عن المسلسل الذي انتهى قبل قليل، أعادت مشاهدته، كانت فاترة مُرهقة لكنها صممت على مشاهدته، وحين برزت شبيهتها وهي ترتدي الحجاب واللباس المحتشم تابعت أداءها مسلّطة عينيها عليها، انتهى المسلسل، قامت وأحكمت إغلاق النافذة، وأسدلت الستائر بعد بزوغ شمس الصباح، اندسّت في فراشها ونامت.

أفاقت في منتصف النهار ودون وعي نزعت من طرف غطاء السرير قطعة قماش، ولفّتها حول وجهها ثم عادت لإكمال نومها.

حين استيقظت من النوم، وقفت أمام المرآة، كانت عارية إلا من حجابها، ارتدت لباسها كاملًا، عادت تنظر في المرآة، لم ترَ أنها تشبه الممثلة المصرية، بل تذكّرت نفسها، طافت في ذهنها للحظات تلك الأيام التي عبرتْ طفولتها، رأت نفسها، تذكّرت طويلًا، متعة التذكّر

غالبة، غابت وكأن سفرًا طويلًا أبعدها عن أيامها هذه، أمتعتها الذكريات، أمتعتها أيامها الصغيرة، حلّ المساء وهي بعدُ غارقة في لذّة العودة، كان سفرها طويلًا ممتعًا، وكانت أيامها الوادعة تتراكض نحوها وتحضنها بشوق.

طُرق الباب ولم تسمع الطرق، توالت طرقات الكهول لكنها كانت بعيدة بعيدة، اشتدّت الطرقات على الباب، لكن دون جدوى فلا تزال هائمة بنفسها ممسكة بها، بدأ بعض الكهول ينادون من شقوق الباب، ومن أسفله، وهي ترتع في مسارات الزمن الطفولي الغابر، وحين يئس الكهول غادروا وهم يقذفون باب شقتها بلعناتهم، وقبل انبلاج نور الفجر غادرت الشقة.

***

شغف كهل

انتظرتُ أن يسقط، أن ينهدم، أن يتلا شى، لشدّ ما بهرني حين رأيته يشمخ بسقوطه، ويسمو بخيباته وفشله، يتكئ على بؤس حظه كلما ناشــه الندم وحضــرت ذاته المُعذّبة به، ســحلته قوارع الأيام، مرضٌ يكدُّه منذ صباه الأول، تقرّحت مسامه من وخزات الأنسولين، امرأة أسنّ منه قبيحة.. تُعيّر عجزه! وتركل كل جمائله، وميراث مال أشقاه تنازعه وأطفأ وقدة بهجاته، فلم يقف له يومٌ رطب يُطفئ غلّة الصادي، ومع كل ذلك يقف شامخًا معاندًا ومتحديًا.

بجانبه جلســتُ، سَــرَدَتْ عيناه فواصــل فجائعه، الدمعُ ينحت جفونه، متأدّبًا فصــيح اللســان والمقال.. «بالَغتَ» قلت له، صــمت وكأني أُعيد إليه خيبة أخرى!

حُنُوّه وشـفقته ودمعته كانت أشـدّ إيلامًا له، صـغار يرجون انفراج شفتيه، يتوقون إلى مسّ ماء قلبه، الزمن بأيّامه القُلّب أنضج قلبه جدًا حدّ الاحتراق!

صـنع له خياله ملاذًا يتوارى خلفه، ألحّت عليه لذّة كان يكفكفها، سيخلو بذاته، سيكتب، سينتقي فاخر القول وينعم بخيال يُتقن صوره البلاغية، ويحذق قي لملمة أطرافه البيانية، توارى خلف اســم آخر مســتعار، وكتب ما أبهج، وأتى على شــتات عذابات القلوب وأتلف

كل خيال صَـنَعَتهُ قبله يدٌ ماهرة، فتأوّدت قلوبٌ رقيقة ما مسّـها قط وَصَب، وسكنت إليه نفوس ظمأى أنهكها الظمأ.

تسكن نفسه كلّ مساء إلى عالمهم، يذيقهم فاكهة القول وعذْب الأمنيات. (أمامهم) هو شاب في مقتبل العمر ألمّ بوسامة وفصاحة، (وخلفهم) هو كهل بعينين مطفأتين، تجذّر الشقاء في ناصيته، وتهدّلت جفونه، يمتح من جوف آدابه حلو الكلام وتبرق في حروفه لمعات الصبا وميعة الشباب.

ليلة شتويّة، كان في هروبه المسائي من فحيح لسانها وذمامة ملامحها، ومن عذابات ليالٍ مكتنفةٍ بالوجع، وكان يزخّ متابعيه بمطر من الأدب والشعر الذاتي، انطوى الليل، قبل أن ينعس، رنّت رسالة خاصة، فكانت (ميّ).

***

أشرقت على تخوم أيامه، أوقفت ركض السنين في دمه، كانت عنوان البهاء، روق الشباب ورونق النّعيم، نثرت بكاءها وشَـجَنَتْ كلماتها، التهم عَنتَها، وجلى صدرها من أكدارها، فانسابت بين يديه كالماء البارد، وذاع عطرها من خلف الشاشة، استفّه فحلّق به.

وإذا لجّت زوجته في تقريعه وتعييره انسلّ من بين شدقيها المُشرعين، وهمز لميّ أن أقدمي إليّ، أتت وسارا على ظهر الليل حتى وصلا إلى طرف الفجر الأول، سافرت به مي نحو أبعاد لم يطأها، أغدقت عليه صورها في بلدان عدة، في براغ.. في باريس.. في

حديقة المنزل، هاجت نفسه، دغدغته كلماتها الرطبة، نهل من رحيق الأيام، وعلّ من واحات الحياة، لم يتصوّر أنه في منعرجات الأيام تختبئ لذّات ولذّات.

عاد إلى أوّل انكسارات ميّ، ورغبة تتنامى داخله لاكتشاف مواطن ضعفها وتلك المشاعر الموؤودة بين أضلاعها، فزعت نفسها المتهالكة، تعلّقت بسؤاله، وانهمرت بحديث طويل عن انكساراتها.

أسندت ميّ قلبها ودمعها إلى صدره، حملَ بعض شوقه ونثرَه في كلمات صعدت بها مخلّفة كل ذاك الضجيج الذي أصمّ شبابها وقفز بها نحو التيه.

تسللتْ إلى زحام أيامه، فجّرت أنهارًا في صحرائه، أبصرتْ الفتق الكبير الذي يتوسط هناءه، أجالت نظراتها في أدغال حياته اليومية، صغّرت اسمه تملّحًا، فهبط إلى أيامه القديمة، رتقت بنقائها فتوق هنائه فعادت إليه مسرات ضلّت طريقها إليه وقتًا طويلًا وانبجس الماءُ من الحجر!

لم تتنافر الأضداد، بل تماثل القلبان، توحّدا، وصنعا سيمفونية الحياة القادمة، ركلا خلفهما أو صاب الأيام الفائتة، تاقا إلى بعضهما حاجةً وعشقًا، سألته عن صورته، مرّر كفّه فوق جبهته، بلبله خوفُ فقدها، شعر وكأنه عاشق مخذول.

***

عماد

يدخن ويتأمل النهر، يضرب أعلى حاجز الجسر بقبضة يده بغضب ويزفر، ابتعدتُ عنه قليلًا ووقفتُ لأراقبه، أوجاع عماد لا حد لها.

***

تغيم الرؤية بين رموشه المبتلّة بالدموع، في الخارج تقول سهام صديقك يختنق!

نعود ثانية إلى ورشة النقاش في المنتدى الأدبي، عماد يتآكل، ألمح اهتزازه واضطرابه، استأذن من المجتمعين في ورشة النقاش، أعتذر بأن عماد محموم منذ صباح اليوم ويجب أن يستريح، نركب السيارة، يهذي عماد دون أن أسأله ما بك؟

عماد يكره كل شيء، يكره الناس في الشوارع، ينتقد تصرفاتهم الصغيرة، يكره البنايات وتصاميمها الغبيّة ثم يصمت طويلًا، أحاول تحريك الصمت، أسأله ما بك؟ ينظر إليّ بارتياب وينفث دخان سيجارته بصمت!

في مرّة سابقة قال لي إن زوجته هي سبب تعاسته، قال إنه يكرهها ويشمئز منها، ولا يُطيق أن ينظر إلى وجهها، قال إنه يتحاشى رؤية وجهها حين يحدّثها، قال إنه يبصق خلفها حين تضع له الشاي

ويتمتم بشتائم لا تسمعها. يقول إنها لا تفهم شِعره بل تسخر من شِعره ورسوماته!

منذ شهور تعلّق بسهام، سهام التي تدير عادة ورشتنا النقاشية حول الشعر والأدب، عماد شاعر قليل الشعر، صرفه حبّ الرسم عن كتابة الشعر.

سهام تشعر به ولا تبادله ما يود من مشاعر، سهام أكاديمية منفصلة عن زوجها تكتفي بتربية ابنتها الصغيرة.

يقول لي عماد إن زوجته قبيحة وإنها تحتقر الرسم والفنّ، وإنها لم تشاهد يومًا فيلمًا ولم تستمع لموسيقى ولم تتأمّل أيًّا من لوحاته، بل تحتقرها وتسخر منها! وإنها دومًا نائمة، وفي كل مكان تجلس فيه تنام، يكمل قائلًا: «أراها أحيانًا تنام في المطبخ وأحيانًا في الحمام، ودائمًا أدخل عليها البيت فأجدها نائمة، تستيقظ بصعوبة وتقابلني بجسد تفوح منه رائحة النوم».

نصحتُه في مرّة سابقة أن يتزوج بأخرى، أحنى رأسه وقال صحتي... فلم يكمل كلامه!

غرس نظراته النارية في عينيّ عندما قلت له: سهام تختلف عنك، ويجب أن تقطع آمالك بها.

شكوت لسهام حالته وتعلّقه بها في ورشة النقاش قبل الأخيرة، رجوتها أن ترأف به، أن تساعده، قالت إن حديثًا طويلًا دار بينهما عبر

تطبيق الواتس، أضافت ونظراتها لا تستقر: أرجوك أن تساعده أنت، الهوّة بيننا عميقة، عميقة جدًّا!

لوحات عماد غامضة لا يمكن شرحها لأحد، حين عرضها في صالة المنتدى الأدبي في محاولة لبعث الثقة في فنّه، وقبل فتح باب المنتدى للزوار هرب! قال لي إنه لا يمكن أن يشرح لوحاته وإنها إنما تعبّر عن رؤية الذي يشاهدها لذا فضّل الغياب!

منذ هروبه في ذلك المساء الصيفي لم أرَه، ستة أشهر مضت، اليوم أصادفه على جسر تشارلز في براغ في منتصف شهر ديسمبر، كان ينتعل حذاءً خفيفًا، يدخن ويتأمل النهر، يجيل بصره في صفحة السماء الواسعة، ثم يضرب أعلى حاجز الجسر بقبضة يده بغضب ويزفر، ابتعدت عنه قليلًا. وقفت أراقبه، كان الهواء البارد يعتسفُ وجهي. أوجاع عماد لا حدّ لنهايتها.

اقتربت منه، رآني، جمد للحظات، رأيت أن عينيه يغشاهما شيءٌ كالضباب، ثم انهال على صدري يبكي بكاءً مفجعًا، ربّتُّ على ظهره إلى أن فرغ من بكائه، اعتدل، مسح دموعه وابتسم ابتسامة طفل وديع، سرنا بجانب بعضنا بعضًا، كنّا في حالة صمت، سرنا نحو ساعة أو ساعتين يوحدنا الصمت، وقف عماد فجأة، توجه ناحية النهر ينظر للبعيد، سألته إلى ماذا تنظر؟ قال: «إلى لا شيء، فقط استثير ذكرياتي هنا أيام الصبا، حين كنت أدرس في معهد الفنون الجميلة». صمتنا طويلاً، أنصتنا لزقزقة العصافير إلى أن قال وهو ينظر نحو الأرض:

أنا كائن رخوي ضـــعيف، أحطته بذراعي، ضـــممته إلى صـــدري بحميمية، امتلأت عيناي بدمع يأبى المســـيل، أكمل عماد قائلا: «أنا سائل متناثر المشاعر أتيت -كما تعلم- من مدينة البكاء، وأنت رجل قوي صـــامد»، أومأت برأســـي موافقًا ومشـــجعًا إيّاه، قال: يجب أن نمتزج..

ابتسمت، قلت له نحن لسنا سوائل يمكن امتزاجها، لم يأبه لردي وزاد في احتضاني حتى أصبحنا كتلة جسد واحد، أغمضت عينيّ كي لا تجودا بدموع تُشـــقيه، فتحتهما ولم أجده، شـــعرت بعراك يقتحم جســـدي، رفعتُ ذراعيّ، ونظرت إلى جســـمي، لحظات و هدأت نفسي، سرت بين أفواج السائحين على جسر تشارلز في مدينة براغ وصوت عماد ونشيجه يملآن صدري.

***

الخيبة

لا تبتئس، الليل طويل موحش، المطر ينهمر وأصوات الرعد تصخب في السماء وبرق يلوح ويغيب، والنهارات تتعاقب بسرعة خاطفة، لا تنتظر، ألمْ يستيقظ في قلبك شوق لعذوبتك.. لطفولتك؟ حين حملك وقبّلك ومسح دمعتك الصغيرة التي سحّت على خدك الناعم.

ليل حالك الظلام، وقلب غاص في النكران أربعين شهرًا أو يزيد، تائه في غمرات اللهو والشقاء، لاح وجهه طيفًا يتهادى في خيالك، منذ تلك الليلة البائسة!

أعياك المسير، وأكلت الطرق قدميك، الآفاق البعيدة تلتمع بخيوط البرق الخاطفة، عُدْتَ من العالم المشروخ.

الآن تؤلمك ذكرى تلك الليلة، تتذكّرها، تعود إليها بحضور كل مشاعرك، الآن تعود إليه آسفًا منكسرًا، تتقدم خطوة نحو البيت ثم تقف، خوف وهيبة من لقاء مؤجل، تحوم حول البيت، يهطل الحنين بين جوانحك، يا لبؤسك، الآن وبعد كل هذه الشهور تشتاق له!

***

هل سيفتح لك الباب؟

.....

هل سيطردك ثانية؟

.....

هل عُدتَ توّاقًا لتحصد حصّتك في ميراثٍ تراه قريبًا؟

.....

شيء خفي يشدّك إلى العودة إليه؟

.....

تشعر أن روحك هشّة، هائمة، تريد أن تسندها بعودتك هذه؟

.....

أنت الآن أمام الباب، تسمع أصواتًا مختلفة، ربما صوت إخوانك، أخواتك.. ربما!

هل تاقت نفسك إلى الاغتسال من أدرانك الماضية؟

.....

أمام الباب، تحسّ أن رجليك شُـلّتا، ناجيتَ نفسـك أنه في هذا الوقت يكون أبي في صـالة البيت، تطرق الباب، يفتح الباب أخوك الصغير، لا يرحّب بك، تسير خلفه وأنت تتفرّى من الغيظ، تسأل عن والدك، لا يجيبك، تدخل متدثّرًا بخزيك وجفوتك وعنادك، يجللك الخوف الوقور، تراه جالسًا، تشعر بركبتيك متخاذلتين، تراه مبتسمًا، تبتهج، تلمح أنه فاغر الفم ضـامر البطن، تقترب منه تغمُره قُبلًا، تطمئن عليه، تسأله، يجيبك بابتسامة، تعيد عليه السؤال، يبتسم لك أكثر!

تختلط الصـور، كسـت عينيك غشـاوة رقيقة من الدموع، أحاطك اليأس من كل جانب..

ترنو بعينيك نحو شقيقك الأصغر، تسأله عن والدك! يحني رأسه بحزن ويقول لك: فقد الذاكرة.. لن يعرفك!

***

أريدُ أبي

الصـــور القديمة.. مشـــاعر مســـجونة، تقف على حافة الزمن المنطفئ، مشـــاعر نجت من تقلّبات الأهواء وتطويح الليالي والأيام، مشـاعر سكنت في حيّز صـغير، لكنها لا تزال تحكي ولا يزال يستمع إليها ويســـتمتع بها، ملامحهم عالقة في الذاكرة وإن تناءت مســـافات الزمن.

بعد منتصـــف الليل كان بحاجة إليه، يتمنى أن يكون بجانبه، سيُجنّبه حتمًا غلواء نفسه المحتدمة، أسند رأسه على مرفقيه وحضن وجهه بيديه وبكى، ترك دموعه تسـيل على الطاولة، دعك عينيه وعاد إلى مشاهدة الصورة متأمّلًا: «كيف أبثّ الحياة في هذه الصورة».

يقف والده تحت ظل شـــجرة في مكان ما خارج العمران، في البرّ مثلًا، تحت ظل شـــجرة أثل عملاقة، ويقف هو تحت والده تمامًا، يجلس على ركبتيه، بجانبهما ثلاثة من إخوانه.

أربعون عامًا وهذه الصورة متحفّزة لإكمال سيرتها!

«من يملك فك قيودها، من يملك إطلاق الحياة إليها كي تقول.. كي تحكي ما صمتت عن قوله أربعين عامًا أو تزيد؟».

غاص في دقائق الصورة، في سرّ الابتسامات، في تقلصات العيون، في الملامح الصـامتة الناطقة، تلفّت في الوجوه، في الملابس، في أشـعة

الشـمس، في أثر الرياح على ملابسـهم، تأمّل سـائلًا.. ناشـدًا.. متوسلًا..

قرّعه الصـمت وآذاه العجز، لا حيلة له إلا أن يخترع الحياة، أن يكسـر حـاجز الزمن الـذي أوقفهـا كـل هـذه الأعوام، صـمم أن سيحاول.. سيفعل!

أيام من الصمت والتأمل والرجاء والإلحاح والتوسل أحدثت كوّة صغيرة في جدار الزمن، نفذ منها، وسافر..

هنـاك هبط، في جوف المكـان سـقط، بين أفيـاء عيونهم طـاف وافتخر، نـاداهم بـأسـمـائهم، وأكمـل كلمـات كـانـت على أبواب شـفاههم، حضـنهم وأفضـى لهم بعذابات عمره بعدهم، البدايات الفاتنة عادت إليه، وجسـده اليابس بدأ يلين، وسـحنته الكامدة لم تفصـل دموعهم عنه، أعوام تزيد على الأربعين قذف بها وراء ظهره، فتحركت شـفاه الشـاب القابع أسـفل والده، وجرت الحياة ثانية في مشـاعر صـورته القديمة فأفاق شـابًا طريًّا لم يعبر الزمن عينيه ولا خدشـت الحياة رونقه ونضـارته. قام الشـاب نافضًـا غبار السـنين، التفت إلى الخلف فانهمرت دموع الشـوق، حضـن والده وطار به بعيدًا عن الزمن القديم، سـافرا بعيدًا عن الأزمان والأماكن والناس أجمعين، خلصا لبعضهما.. امتزجا، لحظة فاصلة في حياته.

***

ندم

كان بجانبها يحمل وجهه تعاسة الأيام وبؤسها، رنّ هاتفها المحمول بتنبيه رسالة واتس، رفعت الجهاز أمام عينيها، كانت صديقتها تمازحها بصورة لها من أيام المراهقة، تجشأ بعنف بعد أن انتهى من شرب القهوة، قام وخرج متثاقلًا يخوض بطنه أمامه، عادت لصورة شبابها وبكت!

***

ذهول

محزونًا كسير القلب كان، مساء يوم خريفي، يوم عطلة ربما، يلبس معطفًا شتويًا يلفّ به جسده وحزنه معًا، خرج من بيته وقليلًا ما يفعل، يجترّ أحزانه القديمة إن نضبت أيامه من حزن جديد واثب، أحكم إيصاد أبواب بيته، كان يخشى أن ينتظره أحد في غيابه، يخشى أن يعلم أحد بخروجه متلصصًا وكأن العالم كلّه يراقب تحركاته وتصرفاته.

المقهى مزدحم، يقف للحظات أمام كل طاولة يعبر بجانبها، يبحث عن شيء ما في وجوه الجالسين، ذاهلًا كان عن الزمان والمكان، وجوه كوجوه الدُمى يمرّ بها، وجوه غائبة في العتمة، ووجوه بسّامة الثغر أبدًا، وجوه تبرق بأحلام لامعة، وأخرى كدّها حزنٌ شقيّ فأوهن ملامحها، وأطاح بنواصيها.

سمّره حزنه أمام عين تكاد تنشر المطوي من عنائها، وقف طويلًا، مدّ نظره وقلبه لها، كانت عيناه تتحفّزان للبكاء، وكانت الوحشة ثقيلة طاغية، والنجاة مستحيلة، تاقت العينان الشاخصتان المكدودتان إلى عينيه.. إلى دمعه، كانتا ترجوان.. تتوسلان، وكان يعالج انفجارًا يتحفّز داخله، ربّت النادل على ظهره مادًّا يده الأخرى إلى حيث الطاولة الشاغرة، هبط على كرسيه وما زال بصره عالقًا بعناءٍ لا يراه غيره.

***

معادلة

كرع من كؤوس اللذة ما طاب له
تمرّغ في الأجساد اللدنة ونهل من عذب الأرياق..
لم ينكفئ إلا حين انطفأت جذوة شبقه، وسكتت رغباته..
بلغ من العمر عتيًّا، وأقعدته الشيخوخة وإن كانت نفسه تتوق وتتوق!
قبل سفره إلى العالم الآخر بأيام، وقف أمام اسمه الثلاثي الذي يعلو جدار مسجد انتهى بناؤه للتو..
ابتسم وهو يرى أنه قد حجز لنفسه مكانًا في الجنة أيضًا!

***

حقد

يجبُ أن أحزن، هذا ما قرّرتُهُ وأنا في طريقي إلى المقبرة، يجب ألّا تخذلني مشـــاعري المحايدة، يجب أن تتحوّل نار الحقد إلى رماد، العيون تبحث، والآذان تُرهف السمع لأي نأمة أو أنّة أو سقطة، حتى إن لم تخرج من الصـدر، يجب أن أحزن، ولا سـبيل إلى ذلك إلا أن أعمد إلى إيقاظ الأيام القديمة، تلك الأيام بما حوته من بياض ونقاء هي الباعث الأكبر، سـأسـتدرّ ذاكرتي، سـأكدّها إلى أن تبعث دقائقها الأولى، لحظات بكورها الصباحي، قبل أن تشتدّ أشعة شمس الأيام وقبـل أن يعصـف الظلام بنور النهـار. في بكور تلـك الأيـام كـانـت الشـمس لذيذة والهواء نقيّ، سـتكون تلك الأيام باعثة لدمعتي التي يجب أن تقفز من عينيّ، يجب أن أحزن ولا مناص من ذلك مهما كلّفتني مشاعري المستعارة من إرهاق وخداع!

رأيت جثمانه يخرج من سـيارة الإسـعاف، اسـتوقدتْ ندوب روحي، ركضتُ نحوه، رفعت معهم خشبة النعش على كتفي، وحين تدخّل أحدهم ليسـير أمامي حاملًا النعش، دفعته بقوّة فكاد يتعثّر ثم خرج، وقف ينظر إليّ متعجّبًا، انبهرت أنفاسي ليس حزنًا بل ثقلًا فقد كان النعش ثقيلًا.

كل ما أدرته في ذهني من حزن مسـتعار وتذكُّر مسـتطاب، وأنّة لم تسـكن صـدري أبدًا، كل ذلك تلاشـى بعد خطوة أو خطوتين فقط،

فقد حضـــرت صـــفعاته لقلبي منذ دفن شـــقيقه -والدي- فعادت ملامحي إلى سيرتها الأولى، بل أبت الانصياع لتصميمي، استهللت قوّة لا أملكها، واســـتهلَّ الدمع تســـاقطه بمهارة طربتُ لها، كانت عيناي تتلصصان النظرات لوجوه تترصّد مشاعري، وتؤكد ما كانت تتوقعه من أن أي حزن لن يعبر نفسـي، فطفقتُ أُنهض مشـاعر الحزن والفقْد الخائبة في نفســي، وأبعث فيها من رغباتي حياة قصــيرة تلائم موقفي الجنائزي هذا، وبعد ذلك فلتنطفئ كل مشـاعري المسـتعارة، أقبض على زوايا نظراتهم كأنها تســألني: «هل أنت حزينٌ؟»، النعش ثقيل والخطوات متقاربة بطيئة وأنا أريد أن أُنفّس عن روحي، وكنت أرتجف خوف فضـح مشـاعري، اتخذ وجهي سـيماء حزن مسـتعار، كانت محاولة مُرهقة، وكنت أظنني نجحت في تمثيلها حين رأيت رجلًا مسنًّا يمسح بيده كتفي ويدعو لي.

رائحة نتنة تنبعث من الجثة، وصـــوت بكاء يأتي من بعيد الزمن، تقف خطواتي، أُريد أن أقول لهم إن الميت لم يمت، وإنني ســـمعت صـــوت بكـائه! لكن جموع حـاملي النعش انـدفعوا بي إلى الأمـام فكدتُ أســقط على وجهي، كنتُ في عناء وشـــدّة، عرق ينزّ، تُثيره الأقدام، عيون أشـعر بسـياطها على وجهي، رائحة تزداد نتانةً مع كل خطوة، وصـوت بكاء يسـتغيث، صـوته، نعم هو صـوته تمامًا، يحفر عطب روحي، لمحت رجلًا يمشي بجانبي، عرفته، نعم هو قريب لي كقرابة الجثة التي أحملها على عنائي، كان ذاك القريب يتقدم أمام

سـير النعش عدة خطوات راصـدًا ملامحي، يريد أن تتأكد ظنونه البائسـة، وكنت أُمعنُ في تضـليله والسـفر به نحو ظنون أخرى، فلم أحضر إلا كي أبدو على عكس ما كان ينتظر.

للحظة وقف سير حاملي النعش وكأنهم وصلوا إلى مشارف فوّهة القبور المحفورة ويسـتشـيرون المنتظرين قدوم الجثمان في أيّ هوّة قبر يوارون هذه الجثة.

شـعرت بزعقة بكاء تخترق أذني اليمنى، أذني اليمنى تحت رأس الجثة تمامًا فأسـمع ما لا يسـمعه غيري، كان البكاء هذه المرة قويًّا ولافتًا، أملت رأسـي نحو رجل يلاصـقني من الخلف، سـألته وعيني نحو الجثة: «هل سـمعتَ البكاء؟». دفعني بحمحمة وغضـب وكأنه ظنني مجنونًا!

أيّ أوجاع تتلبّسني وأنا أصارع نفسي فتغلبني تارة وأغلبها أخرى، وفي كلتا الحالتين لا تغيب عنّي صفعات الأيام الخوالي!

كيف يجب أن أحزن وها هو الموت بقداسته وهيبته وفجيعته فوق كتفي؟! أي قسوة تلك التي لم تزعزعها خطواتي نحو القبر؟! نزّ عرق بارد أعلى جبهتي، أملت رأسـي لأسـمع تشـاور المنتظرين مع رجل يتقدّم الجثمان ويقودنا، كانت عيناي تتعقبان كل المحيطين بي، وكنتُ أُبالغ بشـكل مفضـوح في بذل مشـاعر الحزن التي امتلكت زمامها بعد أن انفلتت منّي، رأيت رجلًا يشـير إلى فوّهة قبر ينتظر ويقول «هنا»، لحظات ثم أُمرنا بإنزال الجثمان، كان عليّ إكمال

مهمتي، فوقفت بجانب فوهة القبر لأرى الجثة تهوي نحو قعر القبر تتلقفها الأيدي.

مسحت وجهي جيّدًا بباطن كفّيّ، تلفَّتُّ في كل اتجاه، تسلَّلت من بين الرجال المتحلقين حول فوهة القبر، وغادرتُ بصمت.

***

وكنتَ الأشقى

تسللت خفية من بين أنظار حرّاس الأمن، اتكأت على ألم كاذب فولجت الممر الطويل المُفضي إلى غرفة الكهل، كان الوقت ضحى، طلابك في القاعة ينتظرون قدومك، وكنت ملتفًّا بهواجسك القديمة، صدرك يتأجج كمرجل، خداك متوهجان ينضح منها غيظ تكفكفه ولا يرعوي، جلبتَ معك سواده وعفنه، ألا ترى أنه يستحق الشفقة الآن وهو مستلقٍ على فراش مرض لا يُرجى بُرؤه، قتلكَ ألف مرّة.. نعم! نهل وارتوى من دمك.. نعم! حارب بزوغك وانتصارك وفوزك.. نعم! تقصّد هدمك وتشفّى بخيباتك.. نعم!

لكنه الآن يغادر، يغادر بإثمك وسوئه، وستصحو السماء غدًا، وتُعيد البلابل غناءها القديم، وتستيقظ نفسك النقيّة ثانية، فلماذا تأتي الآن هنا؟ لماذا لا تدعه يغادر دون أن تحمّله خوفًا آخر في الوقت القليل المتبقي له في هذه الحياة؟

فتحتَ باب غرفته، وأغلقته ثانية بعد أن دخلت، لا أحد حوله، فليس هذا وقت الزيارة، الكهل يتنفّس بصعوبة، وعلى أنفه جهاز التنفّس، دسستَ شفتيك في أذنه اليمنى، ماذا قلتَ له؟ هل هددتَه؟ هل أنذرتَه؟ هل خوّفته من عذاب يوشكُ أن يقع به؟

خفِفْ من وطأة أحمالك فلن تستطيع أن تقف ثانية، لن تتمكّن من العودة وقد جمعتَ أرتالًا من شقاء وعناء.

كُف عن توغلك داخله، الكهل مسجّى، وليس من الفروسية أن تعمل أعمالك هذه في حالة ضعفه القصوى، تبحث عن خيباتك داخله؟ هذا هراء! فكيف يجمع الآن خيباتك وهو لا يعي ما حوله؟

هل تقول إنك تريد ترتيب داخله؟ كيف؟!

قد تفتح الممرضة عليك الباب في أي لحظة، ماذا ستقول لها؟ جئت لأزوره في غير وقت الزيارة، جئتُ لأنتقم منه، أم جئتُ لإعادة ترتيب داخله!

يجب عليك التوقف فورًا عن متاهاتك هذه، وأن تعود إلى طلابك الذين برموا من طول انتظار دخولك عليهم.

تنتهي من وشوشة أذنه بأحاديثك الطويلة، تحدّث نفسك - منتشيًّا- أنه أدرك وا ستعاد كل ما فعله بي منذ وفاة أبي، منذ أن تلقف بياضي وتفحّصه، منذ أن صلبني بين عينيه ونفث على صفحة بياضي كل مداد قلبه الموغل في السواد، إلى أن صنع منّي كائنًا مشوّهًا!

بدأت أنفاس الكهل تتلاحق، تراقصت وجنتاه واحمرّتا، الكهل يعاني من شيء ما، الكهل يتهيأ للانفجار في أي لحظة، وأنت تقف تتأمّل كل ما يحدث أمامك ببرودة وانتقام شرير، إذن سمع الكهل منك شيئًا أفزعه! إذن أدرك الكهل كل ما مضى! وربما تكون حالته هذه المتفاقمة رغبة ملحّة داخله للاعتذار منك، لماذا لا تقترب منه، تحضنه، تمسح حزنه وغضبه؟ هاهو يعود محتدمًا، نادمًا، طالبًا غفرانك ومسامحتك، لماذا تبدو قاسيًا منتقمًا؟ يمور غضبٌ داخل

الكهل، يكاد يُسقط جهاز التنفس الا صطناعي، الكهل يثور.. ينفجر، وفي غمرة عنفوان رجائه، تقترب أنت من وجهه، تنزع عنه جهاز التنفس الاصطناعي، لحظات ويخمد الكهل، تشعر أنك ألقيت أثقالك التي أتيت بها وتعود إلى طلابك المنتظرين دروسك!

***

ألم طفل كبير

دخل البيت مترقبًا، الصالة فارغة كما توقَّع، صعد إلى غرفته الخاصة، انعزل عن العالم، مكتبة صغيرة، شاشة تلفزيون كبيرة يشاهد فيها الأفلام بين الحين والآخر، جهاز تسجيل بسماعتين كبيرتين حين يحلو له السهر، ومكان تعبّده الخاص الذي يتضرع فيه إلى ربه كلما حزبه أمر.

في زواية الغرفة البعيدة مكانٌ يمارس فيه ألعابه الصغيرة، يُفرغ الكيس الذي يأتي به متلصصًا، ينثر الألعاب الصغيرة التي تبدو في عينيه جواهر متلألئة، ينزع ثيابه، يبدأ ممارسة ألعابه الصغيرة، يضع بيتًا هنا وبيتًا هناك، ويوزع الدُّمى الصغيرة ناسجًا حكاية يرتجلها ويعيش بها ومعها. بعد وقت قصير يتحوّل صوته إلى صوت طفل يمارس اللعب بألعابه الصغيرة. طرقت زوجته ذات مرة عليه الباب، فأجابها بصوته الطفولي، تعجّبت المرأة من الصوت وظنت أن في الغرفة طفلًا، قام بسرعة من مكانه، لبس ثيابه، وقف لحظات يستعيد سنيهِ، ثم فتح الباب، سألته زوجته عن صوت الطفل، كانت تنتظر إجابته وعيناها تمسحان أرجاء غرفته بشكٍّ وترقب وخوف وظن، بينما هو يقف أمامها ساكنًا بوداعة، ولمّا لم تجد ما يؤكد شكوكها قالت له: اتصل بأختك فهي تريدك!

خفق قلبه، كان يهرب من عناء أخته، يُشفق عليها، عاد إلى غرفته، أغلق الباب وبدأ يمارس ألعابه الطفولية.

ذات غسق دخل بيته، مكتظًّا بهمومه، يحمل في يده كيسًا بلاستيكيًّا في داخله لعبة اشتراها للتو ليسهر الليلة في لعبها، اللعبة كان حجمها كبيرًا، مدينة كاملة بجبالها وشجرها وناسها، وكان قد عزم وهو خارج من محل الألعاب على حياكة قصة طويلة يرويها لنفسه هذه الليلة، لم يتوقع أن يكون ابنه في صالة البيت يلعب بجهاز الآي باد، ارتمى الطفل في حضن والده حين شاهده داخلًا، قال إن أمّه ذهبت إلى السوق، مسّد على رأس الصبي وقبّله عدة قبلات، رأى الصبي علامة محل الألعاب الشهير على الكيس الذي بيد والده، تراقص فرحًا وهو ينادي شقيقته لترى ماذا أحضر له والده!

صعد الأب إلى غرفته الخاصة خاليًا إلا من هموم لازمته وأرهقته، دخل غرفته وأغلق الباب، ذهب إلى الركن القصي في غرفته، أخرج ألعابه القديمة وبدأ ممارسة لذّته الأثيرة بصوته الطفولي، بعد نحو ساعة رنّ جرس هاتفه الجوال، نظر إلى الرقم ظهر له اسم أخته، ردّ عليها، تدفقت شكوى أخته التي تصغره بعامين، كانت تبكي من فعل زوجها، قالت إن زوجها وصل به إدمانه إلى أن اعتدى على.....! صرخ صرخة طفل قبل أن تُكمل أخته شكواها، صمتت أخته استعادت نفسها، ذُهلت، سألته من أنت؟ هذا

هاتف أخي! رد بصوت طفولي باكيًا، سألته ثانية من أنت؟ عاد يبكي بحرقة طفل نُزعت من يده لعبته التي يحبها!

***

صدر للكاتب

1. **نزوة**، مجموعة قصصية، 1991.
2. **انعتاق من ذات مهملة**، مجموعة قصصية، 1995.
3. **تجليات الطرق الخلفية**، مجموعة قصصية، 1999.
4. **للحياة لون آخر**، مجموعة قصصية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.
5. **حدثتْني فقالت**، مجموعة قصصية، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2011.
6. **ضجيج قلب**، ديوان شعر، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2013.
7. **أيام لا تذبل فيها الورود**، ديوان شعر، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2013.
8. **هل كان قلبي معي**، مجموعة قصصية، 2014.
9. **من أطفأ شمعة أمس؟**، مجموعة قصصية، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2016.
10. **ليلى.. أين أنتِ؟**، بوح، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2017.
11. **ريحانة الأدباء**، مقالات أدبية، مطبعة الحميضي، الرياض،2017.

12. **عُقبى الدار**، رواية، دار المفردات للنشر والتوزيع، 2018. ط2، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2019. ط3، دار أثر، 2021.
13. **أين الصباح؟**، مجموعة قصصية، النادي الأدبي بالرياض، 2020. دار أثر للنشر، 2021.
14. **وكان شقيًّا**، رواية، مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، 2020.
15. **برايتون ذكرى الورد والمطر**، دار سطور للنشر والتوزيع، 2021.
16. **الأعمال القصصية الكاملة**، دار سطور للنشر والتوزيع، 2021.
17. **بدار.. نبتة ماءٍ آسن**، رواية، الآن ناشرون وموزعون، 2022.
18. **متى يصمت الأمس**، مجموعة قصصية، الآن ناشرون وموزعون، 2022.

تم بحمد الله

فهرس المحتويات

إهداء 5

مُمْتَلِئ 9
صقيع 13
التئام 16
عابرة بلا غد 19
قبل أوانه 23
دفء 25
عابر 28
أمنية أخرى 32
صحوة 36
لا تندمل 37
اجترار 38
دائرة الرغبة 39
متعة 42
رحِم 44
تآلف 46
مغادرة 49

شغف كهل 52
عماد 55
الخيبة 59
أريدُ أبي 62
ندم 64
ذهول 65
معادلة 66
حقد 67
وكنتَ الأشقى 71
ألم طفل كبير 74
صدر للكاتب 77